مجلة رفوف ISSN: 2335-1381
مجلد: السادس عدد: الأول السنة: سبتمبر 2018

المكان ودلالاته التراثية في رواية مملكة الزيوان لحاج أحمد الصديق

رابح زهراء ، طالبة دكتوراه بجامعة أدرار
- البريد الإلكتروني: zizozozou@gmail.com

الملخص:

يتناول الموضوع الذي بين أيدينا الحديث عن المكان ودلالاته على المستوى النظري والتطبيقي من خلال رواية مملكة الزيوان لحاج احمد الصديق ، حيث تم الانطلاق من مفهوم المكان الذي يعتبر أهم عنصر من العناصر الفنية للرواية ، فهو الذي تجري فيه الحوادث وتتحرك فيه الشخصيات ،وكذا دلالاته وأبعاده . فعلى هذا الأساس تم توظيف هذه المفاهيم النظرية والكشف عنها في رواية مملكة الزيوان والتي نجدها قد تنوعت وتعددت فمنها ما دل على تجسيد الأصالة والتمسك بالهوية والعادات والتقاليد كالبيت_والزقاق ومنها ما دل على المعاصرة والتطور كالولاية والعاصمة ، أما البعض الآخر فقد دل على الجانب المقدس في المنطقة كالمسجد وأضرحة الأولياء.

الكلمات المفتاحية: المكان، التراث، مملكة الزيوان.

Abstract:

The topic speaks about the setting and its concepts theoretically and practically speaking according to Hadj Ahmed Essaddik novel « Mamlakat Ezziouan » In which he starts from the concept of « the setting » which is considered one of the most important elements of a novel. The setting is concerned with the place where the events happen and the characters moved. Thus the selection of this theoretical concepts is based on this rules and used in « Mamlakat Ezziouan » novel. The concepts are vorious some of them reffer to customs , habits and preserving identity and traditions for example « House , Zekak » and others reffer to modernity and progress for example capital, wilaya… More over some others refer to holy places in the region as the mosque and the tombs of sacred people « Awliaa ».

تقديم:

لقد اهتم الفكر الإنساني على مر العصور بالمكان، وتعددت الدراسات المعرفية والفلسفية والفيزيائية ،والدينية والأدبية التي تناولته في سياقها ، وفي العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي عني علم السرد بالمكان وطوره بوصفه تقنية سردية أساسية لها أهمية كبيرة في الرواية ، ليس لأنه عنصر من عناصرها الفنية أو لأنه المكان الذي تجري فيه الحوادث وتتحرك فيه الشخصيات ؛ بل لأنه يتحول في بعض الأعمال المتميزة إلى فضاء يحتوي كل العناصر الروائية بما فيها من حوادث وشخصيات وما بينها من علاقات، ويرى الناقد حسن بحراوي بأنه ليس عنصراً زائداً في الرواية؛ فهو يتخذ أشكالا ويتضمن معاني عديدة ، وقد يكون في بعض الأحيان هو الهدف من وجود العمل الروائي كله؛ اذ لا بد منه لفهم الإطار العام سواء أكان ذلك حقيقة أم خيالاً. ولما ارتبط المكان بالأديب راح بطبعه بطابعه ويصقله بقالبه لأنه جزء لا يتجزأ من الرواية فهو سبيل السارد لإيصال الملتقي إلى فضاء الأحداث وفهم مجرياتها ؛ لذا اتخذه عدد من الروائيين محورا رئيسيا في قصصهم لتتبع أبعاده ودلالاته ؛ ومن هنا جاء اختيار عنوانا لهذا البحث (المكان ودلالاته التراثية في رواية مملكة الزيوان لحاج احمد الصديق) . ومن خلال هذه الصفحات التي بين أيدينا سنحاول الإجابة عن إشكالية مفادها: كيف وظفت رواية مملكة الزيوان المكان ؟ و ما هي دلالاته وأبعاده في الرواية ؟ وذلك وفق العناصر التالية:

I- مفهوم المكان وأهميته، II- أبعاد المكان، III- المكان ودلالاته التراثية في رواية مملكة الزيوان.

I مفهوم المكان:

1 **لغة:** لا تختلف المعاجم العربية في مجملها على ما أسند للفظة مكان من معنى، فنجدها في لسان العرب لابن منظور تحت الجذر (كون) فقال: والمكان الموضع والجمع أمكنة كقذال وأقذلة، وأماكن جمع الجمع .فقال ثعلب: يبطل أن يكون مكان

فعالا لأن العرب تقول كن مكانك وقم مكانك واقعد مقعدك فقد دَلَّ هذا على أنه مصدر من كان أو موضع منه[1].

ويذهب "الزبيدي" إلى أن «المكان اشتقاقه من كان يكون ولكنه لما كثر في الكلام صَارت الميم كأنها أصلية»[2].وعليه فالأرجح أن يكون "المكان" مشتق من (كون) على وزن مفعل من الكون كموضع ومقعد وليس فعال من التمكن لأن كون جذر ينطوي على دلالة الإخبار عن حدوث وجود شيء وكونه تكويناً أحدثه الله تعالى مكون الأشياء أي مخرجها من العدم إلى الوجود والتكوين إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود ومنه فالمكان جمع أمكنة وأمكن وجمع الجمع أماكن وهو مفعل من الكون.

ووردت اللفظة في التنزيل الحكيم في قوله تعالى «وأذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً»[3]، بمعنى المستقر، ووردت بمعنى المنزلة الرفيعة في آيات عديدة منها قوله تعالى «ورفعناه مكاناً علياً »[4]، ويقال الناس على مكانتهم أي على استقامتهم.[5]وفي قوله تعالى « ان ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل والنهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين »[6]

ومن هنا نلحظ علاقة المكان بالزمان فقد بدا الخلق بإيجاد مكان متشكل في زمان والله سبحانه (يمكن)

[1] –ينظر ابن منظور: لسان العرب مج 06، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص 83.

[2] –الزبيدي: تاج العروس مج 18، باب النون، تحقيق على بشري، دار الفكر، للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، 1994، ص 488.

[3] –سورة مريم: الآية 16.

[4] –سورة مريم، الآية 57.

[5] –الرازي: مختار الصالح، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار الهدى للطباعة والنشر عين مليلة، الجزائر، ط4، 1990، ص 399.

[6] –سورة مريم الاية 54

الكائنات في الأرض أي يجعل لها أماكن تستقر فيها وتتحرك . وهكذا نجد دلالة المكان على التموضع ووجود المخلوقات في مكان دائم سواء كان هذا الوجود ثابت المكان ام متغيره وعليه فان الأحداث لا تقع إلا ضمن مكان .

2 مفهوم المكان اصطلاحا:

لقد تعددت المجالات العلمية والأدبية التي درست المكان ؛ منها الجغرافية والفلسفية والنقد الأدبي ، كما حظي المكان باهتمام الفلاسفة والنقاد قديما ، وقدموا له تعريفات عديدة ؛ فقد عرفه افلاطون بأنه « الحاوي للموجودات المتكاثرة ، ومحل التغير والحركة في العالم المحسوس »[1] ، ويتابع ارسطو ما ذهب اليه افلاطون فيعرفه بقوله « الحاوي الأول ، وهو ليس جزءا من الشئ لأنه مساو للشئ المحوي (...) وهناك المكان الخاص (...) والمكان المشترك »[2]. إذن فالمكان عندهما مدرك حسي ويحتوي الأشياء ، ولا انفصال بينه وبين الشئ الذي يحتويه.

أما المكان في الأدب فانه لا يفهم من خلال وصفه المادي المجرد فحسب لأن الأديب، وخاصة الروائي يتعامل معه بخياله الواسع وأحاسيسه ورؤيته المكانية الخاصة فهو يمثل «مكوناً محورياً في بنية السرد، بحيث لا يمكن تصور حكاية دون مكان، ولا وجود لأحداث خارج المكان، ذلك أن كل حدث يأخذ وجوده في مكان محدد وزمان معين»[3].والمكان الروائي هو «العمود الفقري الذي يربط أجزاء الرواية ببعضها البعض وهو الذي يسم الأشخاص والأحداث في العمق والمكان يلد السرد قبل أن تلده الأحداث الروائية وبشكل أعمق وأكثر أثراً»[4] فيتأسس المكان الروائي في خيال القارئ وليس في العالم الموضوعي

[1] –نقلا عن محمد علي عبد المعطي: قضايا الفلسفة العامة ومباحثها دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ط2 1984 ص124

[2] –نقلا عن بدوي عبد الرحمان : موسوعة الفلسفة الجزء 2 المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط1 1984ص491

[3] –محمد بوعزة: تحليل النص السردي (تقنيات ومفاهيم)، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1، 2010، ص 99.

[4] – يسين النصير، إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1986، ص 05.

فقراءة الرواية رحلة في عالم مختلف عن العالم الذي يعيش فيه القارئ فمن اللحظة الأولى يتنقل القارئ إلى عالم خيالي من صنع كلمات الروائي ويقع هذا العالم في مناطق مغايرة للواقع المكاني المباشر الذي يتواجد فيه القارئ.[1]

وتذهب الناقدة سيزا قاسم إلى أن الرواية تشبه الفنون التشكيلية في تشكيلها للمكان كما تتعدد الرؤيات وتكثر المفردات إضافة إلى كثرة الاستعارات المجازية في رسم المكان وتصويره والمكان باعتباره عنصراً من عناصر الرواية له دور فعال في النص الروائي، إذ قد يتحول من مجرد خلفية تقع عليها أحداث الرواية إلى عنصر تشكيلي من عناصر العمل الروائي فالمكان له دور مكمل لدور الزمان في تحديد دلالة الرواية كما أن له أهمية كبرى في تأطير المادة الحكائية وتنظيم الأحداث إذ يرتبط بخطية الأحداث السردية، بحيث يمكن القول بأنه يشكل المسار الذي يسلكه تجاه السرد، وهذا التلازم في العلاقة بين المكان والحدث هو الذي يعطي للرواية تماسكها وانسجامها ويقرر الاتجاه الذي يأخذه السرد لتشيد خطابه، ومن ثم يصبح التنظيم الدرامي للحدث هو إحدى المهام الرئيسية للمكان[2].

II أبعاد المكان:

وتتجلي تلك الأبعاد فيما يلي:

1 البُعد الجغرافي: ويمكن تلمس هذا البُعد الواضح عبر مستوين الأول: يعمد إليه الروائيون في وصف تضاريس الأمكنة وتقرير طبيعتها وأشكالها وفق التسمية الجغرافية والجيولوجية (سهل، جبل، نهر، بحر) ، والثاني: ما نجده لدى الروائيين من ذكر الأماكن والمناطق بأسمائها المطابقة للأسماء على خارطة الواقع قاصدين بذلك جملة من الغايات الفنية والفكرية.

[1] –ينظر: سزا قاسم بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986 ص 74.

[2] –حسين بحراوي: بنية الشكل الروائي، الفضاء، الزمن، الشخصية، ط1، الدار البيضاء المركز الثقافي الغربي، 1990، ص 20–29.

2 **البعد الزمني التاريخي:** وفي حديثه عن تجليات التاريخ في الأمكنة الروائية يذهب صلاح صالح إلى أن: المهم في تجليات التاريخ وتموضعه في الأمكنة الروائية تلك الأشياء التي وضعها الإنسان على الأمكنة الأرضية من عناصر ساهمت في وسمها بكل ما ينظم إلى ما اصطلح على تسميته بالتاريخ الإنساني، وقلما أغفل ناقد أو باحث روائي الإشارة إلى البعد الزمني التاريخي أثناء تعرضه للمكان الروائي[1].

3 **البُعد الواقعي الموضوعي:** يقل اهتمام الروائيين والنقاد على حد سواء بالأمكنة الواقعية فالمهم بالنسبة للروائي والناقد هو كيفية تموضع الأمكنة على الورق وبالتالي كينونتها الفنية وليس الواقعية، والبعد الموضوعي للمكان الروائي إذن يتجلى فقط في الإحالة المستمرة من الخيالي المصنوع من الكلمات إلى الواقعي المصنوع من الطبيعية وعناصرها المادية في العملية الذهنية الرامية دائماً إلى إخراج اللغة من تجريدها وإلصاقها بما يمكن أن تتموضع فيه[2].

4 **البعد التقني الجمالي:** ويتعلق هذا البعد بمختلف التقنيات التي يلجأ إليها الروائيون في بناء أمكنتهم فهي كثيرة ومستعصية على الحصر وتشهد تنامياً متزايداً ومن هذه التقنيات يشير صلاح صالح لـ: الوصف- القص- ملامح الشخصية -نزع الألفة- دمج الأساليب اللغوية الجميلة والتراكيب الشعرية الخالصة في تصوير المكان[3].

والرواية العربية كغيرها من الروايات بعد أن تجذرت في الثقافة العربية وأوجدت لنفسها موطأ قدم، ألتفتت للمكان وأهميته، وتبلور الوعي المكاني في الرواية العربية الحديثة و «تعمقت دلالتها بالأشياء المكانية وبدقائق التفاصيل والأسماء بما أسهم عبر المتراكم في

[1] -ينظر: سيزا قاسم، بناء الروائه، ص 152.

[2] -المرجع نفسه.

[3] -المرجع نفسه، ص 101.

إنشاء ذاكرة سردية عربية جديدة تستفيد من التراث الحكائي القديم وتضيف إليه جديداً من المكانية الحادثة إليها »[1].

ومن تلك الروايات المحلية الحديثة التي استفادت من التراث القديم وجعلت من الأمكنة مستودع الذاكرة الجماعية؛ كما أعادت تاريخها "رواية مملكة الزيوان" حكاية توات قبل أن تغتسل من طينتها. فكيف وظفت هاته الرواية المكان – وما هي أبعاده ودلالاته التراثية ؟

III المكان ودلالاته التراثية في رواية مملكة الزيوان:

قبل الغوص في أعماق الرواية والحديث عن الأمكنة التراثية التي تناولتها ؛ نقف عند عنوان الرواية مملكة الزيوان " فنجد بان الروائي اختار لنصه لفظتين "مملكة" و "الزيوان" . فالمملكة لفظ غريب عن الصحراء لم يبستتب فيها ابداً لان نظامها يرفض أن تكون به مملكة على عرف الممالك التي عرفها التاريخ ، وإنما البؤر التي تسمح بها الصحراء لكي تقوم فيها الحياة لا تعدو أن تكون بعض الواحات التي يحوطها الرمل من كل جانب ويجتهد أهلها في تحويطها بسور من الطين أنها القصور التي تختلف في شكلها وهندستها عن القصور المعروفة في الشمال. [2]

وهاته المملكة تخضع للعرف الذي يسود القصر وينظم سير الحياة في أطرافه ؛ والمقصود بها الوسط الذي يعيش فيه مختلف الأصناف البشرية تحكمهم مجموعة من الأعراف والعادات والتقاليد والمفارقات. اما لفظة الزيوان فهي كلمة محلية في مجتمعنا التواتي وهي مرتبطة بالعرجون اليابس من التمر ، والمقصود بها ايضا الإنسان التواتي الأصيل الذي يسكن هذه المملكة . فمجتمع الزيوان الذي يمثل العراقة والعمق والأصالة ،هو يعبر عن ارض هي قلادة ثقيلة « ..أن ارض الزيوان هي قلادة ثقيلة في أعناقكم ،

[1] –مصطفى الكيلاني: الرواية والتأويل (سردية المعنى في الرواية العربية)، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط1، 2009، ص 177.

[2] –ينظر حبيب مونسي .نص الصحراء في مملكة الزيوان لروائي الصديق حاج احمد . الملتقى الوطني الثالث للكتابة السردية بادرار ص 183

لها من الحمولة التاريخية والزخم الثقافي _المادي والشفوي _ ما يجعلكم تفتخرون بطينها و قصباتها ، ورملها ، ونخيلها ، و فقاقيرها ، فان آباءكم وأجدادكم قد عاشوا فيها بحسب ما أتيح لهم من الزمان ورضي كل واحد منهم بحسب ما قدر له من الحاجة للأخر ، فعيشوا فيها بحسب ما يتاح لكم ، وإياكم والالتفات كثيرا للوراء ، فانه قد فات ومات » [1]

أما عن الأمكنة التراثية التي عمد إليها الروائي في مملكته فنجدها متعددة ، لأن الروائي اشتعل على المكان بدقة حيث أن مجمل الأحداث كانت تدور في جغرافيا محددة ومعروفة ؛ هي منطقة ادرار عموما وتوات خصوصا. فقد نقل لنا من خلالها الأمكنة نقلا دقيقا بلمسات فنية تحمل زخما هائلا من المحمولات العاطفية والتاريخية والعرفية ، ونبدأها بمسقط رأس الروائي :

البيت: كمكون جغرافي حميم . فالإنسان أول ما يفكر يفكر في استقراره في بيت يأوي إليه كأي فرد في المجتمع ، فالبيوت التي نسكنها « تشكل عالمنا وجوهر وجودنا اذ فيها نمارس أحلام يقظتنا ، ونستشعر الهدوء الوريف الذي نستعيد من خلاله ذكرياتنا المواضي ونخطط لمشاعرنا »[2]، فالبيت ذو وظيفة اجتماعية اقامية أسرية ؛ والروائي في روايته تعرض لبيته الذي يسكنه ووقف على تفاصيله وكل دقائقه كونه قد دارت فيه اغلب الأحداث فيقول عنه « مستطيلاً طينياً سقيفاته بخشب جذع النخل الذي تتخلله الكرانيف المرصوفة والمتخالفة من تلك الجذوع النخيلية بابه خشبي، صنع من جذع النخل المملسة بإبراء القادوم وضع في أعلاه قفل يُسمى آفكر صُنع باقتدار محكم من حرفي ماهر قد يكون تعلم جده الصنعة_وهو اغلب الظن _ على آخر يهودي كان يسكن تمنطيط، قبل أن يطرد من لدن شيخ توات المغيلي، وضعت فيه فتحة حائطية تصل الخارج بالداخل، تسمح

[1] –الصديق حاج أحمد، مملكة الزيوان فيسرا للنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص 30

[2] –احمد طالب : الالتزام في القصة الجزائرية المعاصرة (في الفترة مابين 1931–1976) ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية 1989ص217

بدخول الذراع إليه من ذلك الحائط وتحت هذا القفل من خلف الباب صنع قفل آخر عند وسط الباب لا يفتح إلا من الداخل يُسمى تقلاب »[1].

وفي صفحات أخرى من الرواية يتحدث الروائي عن أماكن داخل البيت كالسقيفة الدخلانية– سقيفة الباب –سقيفة لقعود –رحبة الشياه –وكر الحمام –المصرية وسطح البيت[2]. إضافة إلى بيته نجد الروائي تعرض أيضا لبيت الطالب ايقش الذي يدل على الوحشة والرهبة والخوف فيقول عنه « ..وقد سمحت لنا سياحة وفرجة العرفة لان نعرف كل بيوت القصر ما ظهر منها وما بطن ، حتى تلك التي كانت معزولة ومتطرفة ، او كان الناس يتهيبونها وتحوم حولها الشكوك وتنسج حولها الأساطير ، كبيت الطالب ايقش هذا البيت الذي كثيرا ما حدثنا ميني عنه وعن صاحبه من انه بيت تسكنه العفاريت مع الجان رفقة الطالب ايقش »[3]. كما يصف هندسته قائلا « ..بلغت بابه وقد كان الوقت ساعتها عصرا ، باب خشبي عهدي به كبابنا ، وقد كان الباب ساعتها مفتوحا ثلثه فركبتني رعشة شديدة فطرقت الباب شبه المفتوح ، فسمعت صوتا يأتني من آخر السقيفة »[4]

القصر: من الأماكن التي ركز عليها الروائي واحتفى بها كثيرا في روايته ، ووصف أمكنتها كالسردايـر–سور القصبة –احفير –الساحة –المشور وباب القصر الذي يقول عنه في الرواية « صنع هذا الباب من أخشاب جذع النخيل المتراصة المتينة ثبت فيه من الخلف ثلاثة أحزمة حديدية مشدودة بمسامير حديدية تقليدية (...) وقد كان الحزام الحديدي الأول في أعلاه والثاني في منتصفه والثالث في أسفله تخلد إلى جانبه حجرة كبيرة ملساء على ظهرها ضخمة في شكلها ، وكانت بعتبة ذلك الباب حجرة مستطيلة الشكل رمادية

[1] –الرواية ص67

[2] –ينظر الرواية ، ص 122–123–176

[3] –الرواية ص 227

[4] –الرواية ص213

ملساء. كان سكان القصبة يتخذونها مشحذة لسكاكينهم لذبح الأضاحي والدجاج في الأعياد والمناسبات »[1]

المدرسة : فمثل ما وصف البطل مكان ولادته ، والقصر الذي قضى فيه أيامه الأولى ، وصف أيضا المدرسة وصفا هندسيا وقارنها بالبيت من حيث الشكل والحجم والمكونات « ..أمام تلك الساحة المقابلة للقصبة وبحذاء الساقية التي وجدت للأطفال يلعبون بجانبها يوما يقابلك قسمنا الطوبي الفرق بينه وبين بيوتنا انه مربع يكاد يكون طول ضلعه تسع خطوات بخطوة رجل العراف له باب خشبي أملس لكنه ليس كباب قصبتنا او بيتنا »[2]

القنطرة : يقول الروائي عنها « وأنت تخرج من الداخل من ذلك الباب الوحيد للقصبة لابد لك أن تمر على قنطرة يظهر على جانبيها احفير تتوعد نهايته من الجانبين برحبتان عاليتان مشرفتان ترشم أشعة الشمس الصباحية المشرقة وبنفس القدر والحجم على الحائط المقابل له من تلك الساحة الفسيحة الفاصلة بينهما »[3] ،كما تعتبر من الأماكن المحببة للجلوس عند أهالي المملكة « ...وقد كانت القنطرة مجلسا محببا لأعيان القصبة ولاسيما آخر الضحوة في الشتاء وأولها في الصيف بعد عودتهم من سباخهم »[4].

الزقاق: فقد وصفه وصفاً دقيقاً في ثنايا الرواية حيث يقول «قابلني زقاق واسع مسقف يدور بالقصبة من الداخل على جهاتها الأربع مشكلاً ما يشبه الحزام يُدعى في اللهجة القلقالية أسردار»[5]، ويواصل الروائي حديثه عن هذه الأزقة والقصبات وكيفية الدخول والخروج منها إلى منزلهم، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على معرفة صاحب الرواية بالمكان المحفور في ذاكرته منذ الصغر فيقول في هذا الشأن «نزلتُ القنطرة المائلة نحو الأسفل حتى بلغت الساحة وأنا متمسك بسابة أمي، التي كانت تذهب كل صباح لبستاننا

[1] –الرواية ص92_93

[2] –الرواية ص 122

[3] –الرواية ص 39

[4] –الرواية ص93

[5] –الرواية ص 91.

المحاذي للقصبة المسمى أجدل، فما إن عبرت القنطرة حتى وجدت عدداً غير قليل من الصبيان كان من بينهم الداعلي يلعبون لعبة الغميضة .....»[1].

حفرة الرابطة: فبمجرد قراءة الرواية يرهبك هذا المكان، ويخيفك نظرا لما يمتاز به من عوالم مفتوحة على الجن والعفاريت والتمائم، حاله حال بيت الطالب إيقش يقول عنه : « هناك خارج القصر الزيواني توجد حفرة الرابطة التي تخرج إليها المرأة المتوفي عنها، زوجها بعدا انقضاء عدّتها هي حفرة شبه عميقة من عمقها الأفقي تشبه تماما مدخل كهف او مغارة مخيفة . المكان يفرض على المار كيفما كان، أن يلبس عباءة للأماكن التي يعتقد أنها مسكونة من الجان والعفاريت ولا سيما وقت القيلولة صيفا أو آخر أيام الشهر ليلاً »[2]

بعض الأمكنة المقدسة :

والتي تمثل عمق الأصالة والتمسك بالتراث والهوية كالمسجد –الكتاب– أضرحة الأولياء والتي تعتبر مكان مهم عند أهل توات وهي ذات دلالة تراثية و من بينها ضريح سيدي شاي الله وحفيده مول النوبة؛ فقد زاره الروائي بكثير من الإجلال والتقدير « ..ففي عشية ذلك اليوم المهول وبعد ان عملوا لنا حلاقة ..التقوريرة أخرجونا لزيارة ضريح ولي قصرنا سيدي شاي الله على ايقاع فرقة تدندن الدندون وتقرقب الحديد تسمى قرقابو لعبيد لونهم لا يختلف عن لون الداعلي ووالده ووالدته (و) زغاريد النساء المولولة »[3] ، وضريح الولي الصالح مولاي عبد الله الرقاني بمنطقة رقان الذي تقام له كل سنة وعدة (زيارة) في الفاتح من شهر ماي والتي كان يحرص والده كل عام عند عودته من تجارته ببلاد السودان لحضورها.

[1] –الرواية، ص 94–95.

[2] –الرواية، ص 15.

[3] –الرواية ص96

ومن خلال الانفتاح على مثل هذه الفضاءات المقدسة بطقوسها ومراسيمها ومعتقداتها وما يقدم فيها أيضا للأولياء وأضرحتهم من ألبسة وطعام وأبخرة؛ تصور ذلك البعد الديني والاجتماعي الراسخ في الأذهان إلى اليوم.

فضاء السباخ: يقول عنه «كان هديل اليمام على النخيل ونهيق الحمير المتقطع في فضاء السباخ غالباً في تلك العشية ويقطع أطباقها المخيف وكنا كلما حططنا رحالنا بسبخة من سباخنا الكثيرة والمتعددة يسميها لي أمبارك باسمها فهذه سبخة الفوقانية وهذه السبخة التحتانية وهذه السبخة الكبيرة» [1].

وانطلاقاً من هاته النماذج نستثف أن الروائي قد بنا فضاء روايته من بيئة محلية تواتية تعبر عن عُمق الذاكرة المحلية الريفية ولأنه «.... قد أصبح الريف لا يتجسد في أغلب الروايات إلا من خلال قبو الذاكرة وبفعل تحولات الزمن وتراكمات الخيال وكيمياء التخمر المعقدة»[2].

لقد برزت القرية في (مملكة الزيوان) كمكان مركزي تدور في رحابه الأحداث لكن بما أن التحولات في قصر الروائي مست جميع الجوانب الاقتصادية والثقافية ولاجتماعية فإنه مما لا ريب فيه أيضاً أن يتم التحول على مستوى الأمكنة والفضاءات التي يتنقل عبرها شخوص الرواية فنجد التحول من البيئة الطبيعية إلى البيئة الإسمنتية، وبعدها التحول إلى فضاء المدينة لأن ظروف الدراسة والعمل وكذا الزواج دفعت للانتقال إلى المدينة، فتغير الواقع المعاش ، والأمكنة ومن تلك الفضاءات نجد:

فضاء البلدية: لقد كان هذا الفضاء بالنسبة للروائي جديداً ومغايراً لما قد عرفه بالقصر، فقد اكتشف من خلاله البناء الطيني المحسن بالأسمنت، وقد كانت الداخلية التي

[1] –الرواية، ص 123.

[2] –شياكر النابلسي: جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 1994، ص 91.

أقام بها الروائي خلال الفترة الدراسية أيضاً كذلك لأنها كانت مركزاً عسكرياً للفرنسيين – حسب دراستة بالمتوسطة ومن بعدها الثانوية.

الولاية: يقطن الروائي بعيدا عن مدينة ادرار لذلك عندما زارها لأول مرة كان منظرها رائعاً بالنسبة له فوصفها وصفا دقيقا «...وما إن بلغنا وسط المدينة، حتى استقبلنا أدرار بأبوابها الأربعة المقوسة وذاك عهدها اثنان من جهة الشرق، هما باب رقان لجهة الجنوب، وهو الباب ذاته الذي دخلنا منه وباب تيميون لجهة الشمال، يركن بينهما سوق دينار، واثنان يتسمران في جهتها الغربية، باب بوبرنوس لجهة الجنوب، وباب بشار لجهة الشمال، حُصرت بين تلك الأبواب الأربعة المقوسة، ساحة ماسينيسا الفسيحة الخضراء.كانت أقرب إلى التوسيع منها للاستطالة، يخلد في شرقها الشمالي فندق جملية الأحمر الطيني الجميل، تدور بها أقواس طينية من جهاتها الثلاث، فلا الجهة الجنوبية التي بنيت على طولها ثكنه عسكرية، أو لعلها مركز فرنسي قديم له سور عال وأبراج، وقد قال لي والدي ذات مرات عند ما تصادفت معه فيها، أن نمط عمارتها يشيه كثيراً عمارة تمبكتو وغاو من بلاد السودان المالية والنجيرية»[1].

العاصمة: انتقل إليها الروائي من أجل مزاولة الدراسة بالجامعة يقول «في الخريف الموالي لذلك الصيف انتقلنا متفرقين صديقي القديم... للعاصمة، لمزاولة دراستنا الجامعية هناك، فاخترت أنا التاريخ، لكوني فتنت به مذ درسني التاريخ ذلك الأستاذ العراقي المدعو جاسم...»[2] و خلال فترة الدراسة نجد بأن الروائي قد تجول بالعاصمة ووقف على عدة أمكنة أهمها (معهد التاريخ –قاعدة السنما– ساحة أول ماي...).

كما نجد بأن الروائي في الرواية قد وصف أمكنة فضفاضة فالشخصيات في الرواية تقطع أمكنة وفضاءات مختلفة فقد ذكرها ؛ ليس لمجرد الوصف فقط وإنما لتلاعب بالأمكنة، وذلك من أجل تجسيد حالات معينة ربما تكون (علمية – فكرية– نفسية أو

[1] –الرواية، ص 156.

[2] –الرواية، ص 26.

اجتماعية) على محيط ترتبط به الشخصيات فتصبح ذا دلالات مختلفة ومن بين تلك الفضاءات التي اختزلتها الرواية نجد (قصور تواب – منطقة حموديا برقان – منطقة تمنطيط– الحواضر العلمية كملوكة وتيليلان– زواية سيد البكري– كوسام منطقة بشار– واد الساورة– أولاد خضير– كرزاز– كما نجد إشارة إلى باريس (فرنسا)– وتونس كون الغيواني كان يقيم بها).

لقد كان للمكان خاصة القديم أهمية كبيرة في الرواية كونه يشير إلى دلالات تراثية هامة في حياة الروائي، ولكون العلاقة بين الفضاءات المكانية والشخصيات في الرواية وطيدة لأنه لا يتحقق وجود للحدث الروائي إلا بارتباطه بمكان «فالمكان هو قدر الروائي حتى ولو بلغ به التخيل حداً يحلق به بعيداً عن مكان موصوف أو حقيقي..... ولا يمكن لأي حدث تفصيلي أو لأية بنية لشخصية في الرواية أن تتجلى في حضورها إلا بالتقاء النقطة التي يحددها الزمان والمكان»[1].

خاتمة:

إن أهم ما توصلنا إليه من خلال تجوالنا في صفحات رواية مملكة الزيوان يتجلى فيما يلي:

لقد استخدمت رواية مملكة الزيوان "المكان التراثي" مسرحاً لأحداثها فأغلب أحداث الرواية جرت في فضاءات تراثية كالقصر –البيت الزقاق المدرسة.

لقد أدى الموروث المحلي بأشكاله المتنوعة دوراً هاماً في رسم تقاسيم الأمكنة ودلالاتها في الرواية كالمعتقدات الشعبية والأساطير حفرة الرابطة– أضرحة الأولياء).

ومما يظهر جلياً أيضاً أن الروائي قد استعان بتقنية الوصف في تقديم أغلب الأمكنة في الرواية.

[1] –ينظر ميشل بوتور نقلاً عن سيزا قاسم، بناء الرواية (دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ)، مرجع سابق، ص 74.

لقد دلت الأمكنة التراثية في مملكة الزيوان على أبعاد ودلالات مختلفة منها ما دَلّ على تجسيد الأصالة والتمسك بالهوية والعادات والتقاليد ومنها ما دلت على الجانب المقدس عند أهل المنطقة كالمسجد والكتاب وأضرحة الأولياء الصالحين.

وعموماً فإن هذا النص الروائي قد تميز بالثراء والخصوبة كونه قدم للقارئ رؤية فنية جمالية تساعد على اكتشاف الجوانب الخفية داخل بنيتة الغنية بعدة دلالات وإيحاءات تراثية، كما استطاع صياغة الأمكنة خاصة القديمة منها وفق رؤية تجاوز بها المساحة الجغرافية المجردة؛ إلى الغوض والوقوف على دقائق الأمكنة التراثية وتوضيح العلاقة التي تربط هذه الأمكنة بشخوصها، التي تتحرك عبرها.

المصادر والمراجع

1-القرآن الكريم برواية ورش.
2-ابن منظر، لسان العرب، مج6، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1997.
3-الرازي مختار الصحاص، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار الهدى للطباعة والنشر عين مليلة الجزائر، ط1، 1990.
4-الزبيدي: تاج العروس، مج18، تحقيق على بشرى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، 1994.
5-الصديق حاج أحمد، مملكة الزيوان، فسيرا للنشر والتوزيع، ط1، 2013.
6-حسين بحراوي، بنية الشكل الروائي، الفضاء، الزمن، الشخصية، ط1، الدار البيضاء، المركز الثقافي الغربي، 1990.
7-سيزا قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986.
8-شاكر النابلسي، جماليات المكان في الرواية الغربية، المؤسسة الغربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1994.
9-محمد يوعزة، تحليل النص السردي (تقنيات ومفاهيم)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010.
10- يسين النصير : اشكالية المكان في النص الادبي. دار الشؤون الثقافية بغداد ط1 ،1986
11- مصطفى الكيلاني : الرواية والتاويل (سردية المعنى في الرواية العربية)ازمنة للنشر
12-احمد طالب :الالتزام في القصة الجزائرية المعاصرة في الفترة مابين (1931-19766) ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية 1989
13-الملتقيات: الملتقى الوطني الثالث للكتابة السردية (السرد والصحراء) من 1الى3 ديسمبر 2013